بالاعتدال في المأكل والمشرب وبالنظافة وتنقُّس الهواء النقي وما اشبه من الوسائل التي تبقي الجسم قادراً على القيام بما يطلب منهُ . واخيراً يجب ان يدرَّب العقل على قلة التعرُّض لاعمال الجسم ما دام الجسم متبعاً قوانين الصحة ويجب ان يدرَّب المرء على مقابلة نوائب الزمان بصدر رحب حتى لا تأتي صحتهُ بالهموم والغموم

وحفظ العقل سليماً من الاوهام الضارة اسهل سبيلاً من ازالتها منهُ بعد تسأطها عليهِ كما ان منع الميكروبات من دخول الجسم اقل كلفةً من محاربتها والتغلُّب عليها بعد دخولها واسلم منهما عاقبةً . فعلى الذين يتولون اصلاح النفوس ان يكون هذا غرضهم الاول . واذا اتفق اطباء الارواح واطباء الاجسام على وقاية الناس مما يضرهم جسداً وعقلاً صلح حال هذا المجتمع وقلَّت منهُ الاوصاب والآلام

رحلة بارتيما الى الحجاز واليمن والهند

بارتيما رحَّالة ايطالي من اعيان مدينة رومية وقيل من غيرها جاء الى مصر سنة ١٥٠٠ ثم انتقل الى الشام وانتظم في سلك المماليك ودعي نفسهُ يونس وسار من دمشق الى مكة مع الركب الشامي في سنة ٩٠٣ (١٥٠٣ مجرية) وهو اول اوربي دخل مكة في ما يعلم ثم ارتحل من مكة الى اليمن والهند وبلاد فارس ووصف ما لقيهُ في رحلتهِ من الغرائب فرأينا ان نلخصها في ما يلي وقد علقنا عليها حواشي بعضها لبادجر وشفر وبعضها لنا . قال المؤلف

طالما نزعت نفسي الى السفر لتتفرج على البلاد التي لم تطأها قدم احد من الافرنج قبلي فركبت سفينة اوصلتني الى الاسكندرية فاقمت فيها اياماً ثم ارتحلت منها الى القاهرة فمصر المماليك وعاصمة سلطنتهم . ولا اطيل الكلام على غنى هذه المدينة وبهائها فكل ذلك معروف لدى مواطني

وقد اقمت في القاهرة زمناً وارتحلت منها الى الشام بحراً فنزلت بيروت . وهي مدينة وافرة الخيرات سكانها مسلمون وحولها سور تتحطم عليهِ الامواج لكنهُ لا يكتنف المدينة من كل جهاتها بل من الغرب وعلى شاطىء البحر فقط[1] . ولم ارَ في المدينة ما يستحق الذكر الاَّ بناء متهدماً قيل ان ابنة الملك كانت مقيمة فيهِ لمَّا اراد التنين ان يفترسها فجاء مار جرجس وقتلهُ[2]

(١) ربما كان السور متهدماً من جهة البرّ ورممهُ الامير فخر الدين الثاني في اوائل القرن السابع عشر

(٢) هو مقام الخضر ولا يزال قائماً في الجانب الشرقي من المدينة وقد كان قبلاً كنيسة تعرف بكنيسة مار جرجس يبت في المكان الذي قيل انهُ قتل التنين فيهِ وانقذ ابنة الملك ولا يزال الناس هناك يروون هذه الحكاية

وارتحلت من بيروت الى طرابلس على مسيرة يومين منها وهي مدينة كثيرة الخيرات وسكانها مسلمون خاضعون لسلطان مصر (١). وانتقلت من طرابلس الى حلب فوصلتها بعد مسير ثمانية أيام وهي مدينة زاهرة تابعة للسلطان وواقعة على حدود بلاد الترك. ولها تجارة واسعة مع الفرس فانها طريقهم الى الشام وبلاد الترك

ثم ارتحلت الى دمشق فمررت بحماه وهي مدينة كثيرة الفاكهة ويكثر اهلها من زرع القطن. وقبل وصولي الى دمشق وعلى ١٦ ميلاً منها مررت ببلدة من اعمال دمشق تدعى متين وهي على رأس جبل واهلها مسيحيون تابعون للكنيسة اليونانية وفيها كنيستان جميلتان قيل انهما من بناء القديسة هيلانة ام قسطنطين. والفاكهة فيها غاية في الجودة ولاسيما العنب وياتيها ومياهها كثيرة (٢)

وقد اقمت في دمشق بضعة اشهر اتعلم اللسان العربي وانهُ ليصعب عليَّ وصف هذه المدينة وبهائها. اكثر سكانها من المسلمين والمماليك وبينهم كثيرون من المسيحيين الروم. وعلى المدينة نائب يوليهِ سلطان مصر وفيها قلعة حصينة جدًّا حسنة البناء قيل ان بانيها احد المماليك وهو مسيحي الاصل من مدينة فلورنسا كان مملوكاً عند احد السلاطين فدسَّ بعضهم السم للسلطان وقدَّر الله انهُ سقي على يد مملوكهِ هذا فسرَّ منهُ وولاَّهُ ولاية السلطنة في دمشق فبنى القلعة فيها ونقش رنك (شعار) فلورنسا على الرخام في كل زاوية من زواياها. وفي القلعة مدافع كبيرة جدًّا ولها اربعة ابراج واربعة ابواب وحولها خندق متسع ويقوم بحراستها خمسون مملوكاً من مماليك السلطان عليهم امير هو نائب القلعة (٣). ومتى جلس

(١) كانت الشام لم تزل تابعة للمماليك الجراكسة في زمن السلطان قانصوه الغوري والخليفة العباسي المتمسك بالله وذلك قبل ان استولى عليها السلطان سليم العثماني بسبع عشرة سنة. وقد مات السلطان الغوري سنة ١٥١٦ في معركة جرت بينهُ وبين السلطان سليم في مرج دابق على مقربة من حلب اصابهُ الفالج لشدة حنقهِ بسبب انهزام العساكر المصرية فسقط عن فرسهِ ومات وقيل قتل قتلاً

(٢) لم تزل هذه القرية والقرى التي حولها مشهورة بجودة عنبها وسكان متين الآن مسلمون على ان القرى التي حولها فيها عدد كبير من المسيحيين ولعلَّ بريد باحدى الكنيستين دير صيدنايا المشهور وهو على مقربة من متين (٣) كان نائب الشام يلقب بكاتل السلطنة وكان السلطان يولي نائباً آخر على القلعة يكون مستقلاً عن نائب الشام وكان نائب الشام يستولي احياناً على القلعة ويغتصب نائبها رغماً عن ارادة السلطان. اما القلعة فان الملك الظاهر بيبرس رممها في اواخر القرن الثالث عشر وفد كان لهُ ولكل امير شعار فيهِ صورة اسد ينفثهُ على عقودهِ ومبانيهِ وكان لكثير من امراء المماليك شعار على بعضهِ صورة الزيتون. وكان بيبرس قد دسَّ السم للملك الظاهر بهاء الدين في الفيل وهو لعبن الخيل فشربهُ بيبرس خطأً ومات وتوفي في دمشق. وربما كان ذلك اصل حكاية هذا الملوك التي يرويها بارتيا وغيرهُ من السياح الافرنج

سلطان جديد جاءهُ احد امرائهِ وقال لهُ « لي زمن في خدمة مولانا السلطان فيجعلني نائبهُ على دمشق فاعطيهُ منها مئة الف اشرفي او مئتي الف [1] » - فيوليهِ السلطان نيابة دمشق واذا انقضى الحول او الحولان ولم يرسل اليهِ المال وجَّه اليهِ جيشًا او قتلهُ باي وسيلة كانت واذا ارسل اليهِ المال اقرَّهُ في ولايتهِ . وفي دمشق مع نائب السلطنة بضعة عشر اميرًا ومقدمًا يبتزون الاموال من التجار ويثيارون في الظلم والاعتساف فان نسبة الاهالي الى المماليك كنسبة الغنم الى الذئاب . واذا اراد السلطان مالاً من المدينة ارسل كتابين الى نائب القلعة امرهُ في واحد منهما ان يجمع الامراء والتجار الى القلعة فمتى تكامل مجلسهم قرأ عليهم الكتاب الثاني واجرى ما فيهِ حالاً خيرًا كان او شرًّا وهذا دأب السلطان في جباية الاموال . وربما امتنع التجار والامراء عن الحضور فاذا اوجسوا شرًّا من نائب القلعة استطوا خيولهم وفروا الى بلاد الترك [2] . وحامية القلعة في يقظة دائمة يتناوبون حراسة الابراج وهم لا ينادون بعضهم بعضًا ليلاً بل في كل برج طبل صغير يضرب في البرج الواحد فيجيب اصحاب البرج الآخر وهلم جرًّا والويل لمن يتأخر عن ضرب نوبتهِ فان جزاءهُ السجن سنة كاملة

ثم اخذ الكاتب يصف دمشق فقال انها خاصَّة بالسكان وافرة الغنى تفوق صناعتها الوصف في الزخرفة والاتقان وانها كثيرة الخوم وافرة التلال لا مثيل لها في كثرة فواكهها لاسيما العنب فهو فيها على مدار السنة . ومن اثمارها الجيدة الرمان والسفرجل واللوز والزيتون الكبير الثمر وقال ان فيها الورد الاحمر والابيض من ابهج ما رأتهُ العين والتفاح والكمثرى والدراقن (الخوخ في مصر) وهو رديء الطعم لكثرة ما في المدينة من الماء فان نهرًا يمر في وسطها وفي اكثر بيوتها احواض مرصعة بالفسيفساء والبيوت قبيحة من الظاهر لكنها جميلة جدًّا من داخلها ومزينة بالمرمر المنقوش

ثم وصف الجامع الاموي فقال . الجوامع كثيرة في دمشق احدها الجامع الكبير وهو في عظم كنيسة مار بطرس في رومية صحنهُ مكشوف للهواء لكن اروقتهُ مسقَّفة ويقال ان النبي

(١) الاشرفية دنانير ضربت في زمن المماليك وسميت بالاشرفية نسبة الى الملك الاشرف وهو لقب بعض سلاطينهم (٢) كثيرًا ما كان الامراء والاعيان يفرون الى بلاد الترك ويحتمون بالسلطان العثماني مرارًا من استبداد المماليك ولما نشبت الحرب بين السلطان قانصوه الغوري والسلطان سليم العثماني كان ضلع الكثيرين من امراء الشام وسكانهِ مع السلطان سليم

زكريا مدفون فيه . ولهُ اربعة ابواب كبيرة من النحاس وفي داخله احواض كثيرة للماء وقد كان قسم منهُ كنيسة للمسيحيين في زمن مضى

ورأيت في دمشق الموضع الذي قيل ان المسيح نادى فيه بولس الرسول وموقعهُ خارج المدينة على ميل من احد ابوابها وهناك مدافن المسيحيين . ورأيت في السور البرج الذي سجن فيه بولس الرسول وقد حاول المسلمون اعادة بنائه على غير جدوى فانهم كانوا يرونهُ متهدماً في الصباح في المكان الذي هدمهُ الملاك لاخراج الرسول . ورأيت كذلك الموضع الذي يقال ان قابيل قتل اخاهُ هابيل فيه وهو على ميل من المدينة في سفح اكمة قرب وادٍ عميق[1]

والمماليك مسيحيون يشتريهم الامراء فيكونون في خدمتهم ويعتنقون الاسلام وهم لاعمل لهم الاَّ التمرُّن على استعمال السلاح والتخرج في الآداب حتى يتفوقوا فيها . ولكل مملوك مئة وثلثير اشرفية في الشهر فضلاً عن نفقته ونفقة بيته وفرسه واذا خرج في غزو او حرب كان لهُ رزق آخر يعطى لهُ فوق ذلك . ولا يسير المماليك في المدينة الاَّ كل اثنين او ثلاثة معاً فانهُ اذا خرج الواحد منهم وحدهُ عدَّ ذلك حطاً من شأنه واذا لقيهم احد المماشقة ولو كان اكبر اعيان المدينة وجب عليه ان يوسع لهم في طرقهم ويكرمهم والاَّ ضرب بالقلق[2] وللمسيحيين تجارة واسعة ودكاكينهم كثيرة يبيعون فيها الصوف والحرير والاطلس والمخمل والنحاس لكن الاساءة اليهم كثيرة . ثم وصف الكاتب المشكرات التي يوتكبها المماليك وتعرضهم للنساء على قارعة الطريق واموراً اخرى رأينا ان نضرب صفحاً عنها

ووصف بعد ذلك سفرهُ الى مكة مع الركب الشامي قال . خرج الركب الى مكة في الرابع من ابريل سنة ١٥٠٣ وكنت شديد الرغبة في السفر معهُ فتقربت الى مقدَّم المماليك الذين سافروا مع الركب لحراسته وكان اصلهُ مسيحياً فالبسني ملابس المماليك واركبني فرساً وذلك لقاء مبلغ من المال واشياء اخرى اعطيتهُ اياها . وخرجنا من دمشق وسرنا ثلاثة ايام ونزلنا في موضع يقال لهُ المزيريب فاقمنا هناك ثلاثة ايام اشترى فيها الحجاج جمالهم وبعض الحاجات .

---

(١) لا تزال هذه الاماكن معروفة في دمشق الى يومنا اما قصة ترميم البرج وهدم الملاك له فهي خرافة يتناقلها المسيحيون

(٢) كان اكثر المماليك في بادىء الامر من الجراكسة يأتي بهم تجار جنوى ويبيعونهم للسلاطين مصر واسرائها فلما وقعت الاسيانة في قبضة الاتراك انقطع الجنويون عن بيع الجراكسة فكان الاتراك يبيعون اسراهم في الحرب الى المصريين ومعظمهم من البر والفلاخ فانهم كانوا يختنون مريهم فر اقرهم عندهم . وكان بين هؤلاء المماليك ايضاً عدد كبير من اهالي صقلية والمانيا وبلاد اليا وغيرها من البلدان

وفي المزيريب امير يدعى زامبي [1] وهو امير العرب الضاربين في تلك النواحي وله ثلاثة اخوة واربعة ابناء وعنده من الخيل ٤٠٠٠٠ جواد وفي مضاربه وحدها عشرة آلاف فرس انثى وعدد ابله ٣٠٠٠٠٠ ومراعيه تمتد على مسيرة يومين. ومتى شاء هذا الامير شهر الحرب على السلطان او نائبه واذا جاء زمن الحصاد والناس آمنون وهم يظنونه على مئة ميل منهم او اكثر هجم على دمشق او القدس ونهب ما فيهما من الغلال. ومتى سار هو وقومه في غزوة ساروا مجتمعين كالزرازير. وهم يخيفو الابدان سمر الالوان سود الشعور ولا يعلم عددهم الا الله. والقتال دائم بينهم وفي زمن الحج ينزلون من جبالهم ويقطعون الطريق على الحجاج. وابينا توجهوا اخذوا نساءهم واولادهم وامتعتهم معهم وحفروا بيوتهم على جبالهم وهي من الشعر الاسود كثيبة المنظر جداً

وسار الركب من المزيريب في الحادي عشر من ابريل وكان فيه ٤٠٠٠٠ حاج ومعهم ٣٥٠٠٠ جمل. وكنا نحن المماليك ٦٠ مملوكاً يسير ثلثهم في المقدمة ومعهم الراية والثلث في القلب والثلث في الساقة وهذا كان دأبنا في السير. وبعد مسير اثنتين وعشرين ساعة اشار الامير اشارة تناقلها الناس من جماعة الى أخرى فوقفنا كلنا في مكاننا ونزلنا هناك [2] واسترحنا ٢٤ ساعة اطعمنا فيها جمالنا ثم عدنا الى المسير. وكنا نسير كل يوم ٢٣ ساعة ثم نستريح يوماً كاملاً وهكذا الى آخر المسافة. وبعد ان سرنا ثمانية ايام نزلنا في موضع اقمنا فيه يومين لان جمالنا كانت قد تعبت كثيراً فلقينا هناك جماعة من البدو فنشب القتال بيننا وبينهم لكن لم يقتل منا غير رجل وامرأة فان السبعين مملوكاً كانوا يكفون لقتال اربعين او خمسين الفاً منهم. واني لم ار اشجع من هؤلاء المماليك ولا امهر منهم في القتال اوقف احدهم مرة عبداً من عبيده على بضع عشرة خطوة وعلى رأسه رمانة قرمزي الرمانة بينهم واصابها. ورأيت آخر اطلق العنان لفرسه ثم حل سرجه ورفعه الى فوق رأسه واعاده الى مكانه ولم يصب بسوء لا هو ولا فرسه. وسروجهم مثل سروجنا تماماً

وبعد مسير ١٢ يوماً قطعنا مفازة يبلغ طولها ٢٠ ميلاً [3] توفي فيها ثلاثون حاجاً من

---

(١) يظن بادجر ان المؤلف يريد بزعبي الزعبي وهو اسم عشيرة في تلك النواحي لكن الزعبيين في ايامنا من الحضر وربما كانوا على البداوة في زمن بارتيا. اما عرب سوريا في هذه الايام فعشائر كثيرة ترجع معظمها الى الفيليين والسردية وبني صخر والفضل والفرحان وعنزة وولد علي وفديرين وغيرها من العشائر (٢) على مسيرة اثنتين وعشرين ساعة منزل الحجاج يعرف بعين الزرقاء حيث يخرج نهر الزرقاء وهناك قلعة بناها السلطان سليم (٣) هي العقبة الشامية تبعد ١٢ ساعة عن معان

شدة العطش ودفن بعضهم في الرمال وهم لا يزالون على قيد الحياة لكن وجوههم تركت مكشوفة . ثم وصلنا الى الكمة وجدنا بئراً على مقربة منها فكان سرورنا عظيماً [1] لكن الاعراب منعوا الماء عنا واجتمع منهم نحو ٢٤٠٠٠ رجل وقالوا لا نسمح لكم بالماء ما لم تدفعوا لنا ثمنهُ فاجبناهم ان الماء من منح الله وهو للصادر والوارد وامتنعنا عن شرائهِ فبدأ الاعراب يقاتلوننا فلما رأينا ذلك منهم اخذنا جمالنا في شكل دائرة ووضعنا الحجاج في الوسط ونشب القتال بيننا وبينهم ودام يومين كاملين فرغ فيهما الماء منا ومنهم . وكان قد تكاثر عددهم وملأوا الجبل برجالهم فجمع الامير الحجاج وشاورهم في الامر فقرّ الرأي على دفع ١٢٠٠ دينار للاعراب فلم يكادوا يقبضون المال حتى عادوا الى قتالنا وقالوا ان عشرة آلاف دينار لا تكفيهم فلما رأى الامير ذلك امر الحجاج المسلمين ان ينضموا الى المماليك فصار عددنا ٣٠٠ فسيّرنا الركب امامنا واشتبك القتال بيننا وبين الاعراب فقتل منا رجل وامرأة فقط وقتل منهم ١٦٠٠ رجل ولا غرابة في ذلك لانهم كانوا كلهم عراة وخيولهم بلا سروج [2]

وبعد مسير ثمانية ايام رأينا جبلاً يقيم فيهِ جماعة من اليهود [3] يبلغ عددهم نحو اربعة آلاف او خمسة آلاف رجل وطول الواحد منهم خمسة اشبار او ستة والوانهم سمراء وهم لا يأكلون غير لحم الضأن ويقولون انهم يهود واذا وقع مسلم في ايديهم سلخوهُ حياً . ووجدنا في سفح الجبل المذكور مصنعاً من الماء يجتمع فيهِ ماء المطر فملأنا منهُ ١٦,٠٠٠ حمل من القرب واستاء اليهود من ذلك واخذوا يقفزون على الآكام مثل المعز لكنهم لم ينزلوا الى السهل لأن العداوة مستحكمة بينهم وبين المسلمين . وبعد ان اخذنا ما يكفينا من الماء عدنا الى السير وبعد يومين وصلنا الى مدينة التي فنزلنا على بئر تبعد عنها اربعة اميال واقمنا هناك يوماً كاملاً غيّر الحجاج فيهِ ملابسهم قبل الدخول الى المدينة

ستأتي البقية

---

(١) من منازل الحجاج وتعرف بالحجر وذات الحج وساوها لبني سليم والاكمة التي ذكرها تعرف بعقبة الحجر (٢) لا ريب ان في قوله هذا مبالغة لان الاعراب غايتهم النهب فقط فاذا رأوا من خصمهم قوة انقلبوا راجعين ولم يجترئوا حتى يقتل منهم ١٦٠٠ رجل ولا نظن ان بني سليم هناك كان لهم العدد الذي ذكرهُ من الرجال (٣) قال شنراور هذا المكان يعرف بالقلعين وأسطيل عنتر وهي على مسيرة يومين من المدينة . وذكر بادجر ان اليهود يقيمون في الحجاز الى زمن غير بعيد لكن يهود سبع وهو في بلاد العرب سنة ١٧٦٣ أن عدة قبائل منهم كانت مقيمة في تلك النواحي في ايامهِ . وذكر بركهارت شيئاً عن يهود خيبر وقال ان اهل مكة وجدة كانوا يعتقدون في ايامهِ ان اليهود لم يزالوا مقيمين في الحجاز